

## استقالة العقل

### بقلم الصحفي ادمون صعب

جريدة النهار ٢٩/٩/٢٠٠٠

"لقد دخلنا جميعا في التجربة. لكن مسؤولياتكم كانت اكبر لانكم ارتضيتم ان يحتمي الشر وراءكم ويتستر بكم. وبدلا من ان نرص الصفوف وايكم، تركتموه يبعثر الصفوف بكم وبنا ويكاد يحطم آخر مقومات الوطن (...). هل تقبلون بفصم "شراكة" المواطنة بين اللبنانيين؟ (...). وهل تمدون يديكم لتعاون على الانتقاد وتدارك انهيار الصيغة، ام تراكم تتركونها للقدر المشؤوم؟ (...). اننا نصرّ في لحظة التجربة والامتحان على تأكيد ايماننا بالله وبلبنان وثقتنا بكم انتم (...). منتظرين منكم مبادرة سريعة في مستوى المسؤولية". الشيخ بيار الجميل في نداء الى المسلمين الاحد ٢٨ آذار ١٩٧٦

رغم مرور اكثر من اسبوع على صدور بيان المطارنة الموارنة من بكركي، لا يزال هو الموضوع الرئيسي للنقاش السياسي في البلاد، وقد طغى على ما عداه من اهتمامات متصلة بالاستحقاق الحكومي الذي وضع في ثلاجة الانتظار في مكان ما بين بعدا ودمشق، الى ان يحين موعد الاستشارات منتصف الشهر المقبل.

والغريب في ما جرى اثر صدور البيان، ان مادة واحدة فيه حرّكت العواطف واثارت الغرائز، في حين تعامى الوسط السياسي باكملة عن بقية البنود، رغم اهميتها بل خطورتها نظرا الى اتصالها بحياة المواطنين ومعيشتهم، وتوقهم الى العمل الشريف والخبز النظيف... والحرية. وقد اعطى هذا التعامي البيان صدقية في تعداده لسلبيات الوجود السوري وخصوصاً لجهة تجويفه الحياة السياسية وتعطيلها الى درجة ان الاصوات التي ارتفعت، وبعضها يئن في سره من وطأة الازمة الاقتصادية والواقع المزري الذي يعيشه لبنان نتيجة الضغوط التي يتعرض لها اقتصاده من الداخل والخارج - قد جرت تعبئتها لملء فراغ مخيف خلفه "حدث" الانتخابات النيابية الذي اظهر اننا سندخل مجدداً نفق اهل الكهف اربع سنوات اخرى، وان الايدي التي تحرك الدمى من بعيد منذ اكثر من عقد لا تزال تمسك بكل الخيوط. ولم يشذ عن هذا الواقع اي طرف في الساحة، لا في معسكر السياسيين، وبالأسف، ولا في معسكر رجال الدين.

واللافت في هذه الملهاة التي رفع الستار عنها بيان المطارنة - وكان يمكن ان يمر من دون ضجة - ان موضوعها هو عينه "المؤامرة" التي لم ينج منها موقف وطني او موضوعي منذ اندلاع الاحداث في العلم

فبدلاً من النظر الى موقف بكركي من خلال مضمونه وارتباطه بالواقع وتحليل مكوناته، تتصرف الدمى الى البحث المخبراتي عن يقف وراء هذا الموقف، ومن اوحى به او يمكن ان يكون اوحى به، من الخارج طبعاً، بدءاً باسرائيل - وان يكن صاحبه من الد اعدائها - الى الصهيونية والامبريالية وزعيمتها الولايات المتحدة، وصولاً الى الاستعمار القديم والحديث واجهزته، متناسية - الدمى اياها - ان كل هذه المقولات كانت من اختراع النظام الذي انهار مع جدار برلين والاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية. ووسط غياب العقل والمنطق، راحت اصوات تتحدث عن املاءات اميركية على بكركي لتفجير قنبلتها في هذه الآونة، بعد مرور ٤ أشهر على اندحار اسرائيل وانسحابها من الجنوب، و"قصاصاً" لابقاء الجبهة الجنوبية مفتوحة على الخوف والقلق لبنانياً ودولياً، وعلى نحو متعمد تؤكد بعدم ارسال الجيش الى المناطق المحررة، وترك اسرائيل تقطف ثمار انسحابها - وما همها ان هي خرجت ذليلة - استقراراً في الداخل وراحة لجيشها، وتوفيراً للضحايا في صفوفه، باعتبار ان "تفاهم نيسان" الذي التزمه اطراف النزاع في الجنوب، بما فيهم سوريا واسرائيل والولايات المتحدة وفرنسا ولبنان، قد الزم المقاومة بعدم القاء صواريخ على الأراضي الاسرائيلية وحصر المواجهة بينها وبين الجيش الاسرائيلي والميليشيا المتعاملة معه في المناطق اللبنانية المحتلة، الا في حالات الرد على الاعتداءات التي كان يتعرض لها المدنيون، وما عادوا يتعرضون لها. نقول، بألم وحسرة، ان اسرائيل قطفت ثمار الانسحاب، لأن لبنان الذي اصرّ على ابقاء جبهته مفتوحة انتظاراً لاسترداد مزارع شبعا وتحرير الجولان، في "بوابة فاطمة" وسواها، قد عرض نفسه لـ "عقوبات" الدول المانحة التي تُعتبر تجمّعاً "يكافئ" الدول التي تعمل من اجل السلام، وهي مضطرة الى هذه الشهادة حيال شعوبها وموازاناتها، حتى يُسمح لها بتقديم المال والمساعدات، علماً ان بعضها يمولّ القوة الدولية الموقّعة في الجنوب منذ انشائها عقب اجتياح عام ١٩٧٨. والدول المانحة ليست جمعيات خيرية بل هي مراجع لها دورها ونفوذها، وتكافئ بمقدار الاستحقاق. أما المنظمات غير الحكومية فهي أشبه بجمعية الأم تيريزا تشفق على المعوزين والبائسين، ولا تمويل مشاريع لانماء الجنوب المحرر قدرها لبنان بمليار و ٢٠٠ مليون دولار. وحتى المساعدات العاجلة والطائرة التي تقدّر بقرابة ٣٠٠ مليون دولار قد لا يكون في مقدور هذه المنظمات توفيرها كلها بالسرعة التي يتناها لبنان، وقد دهمه الوقت ودخل أهل الجنوب أجواء الشتاء والبرد ومتطلباته، في ظل البطالة وتعطل المصالح في مختلف المرافق.

ولم يوفر البطيريك وبكركي في هذا الامر بعض غلاة الموارنة من حلفاء سوريا في لبنان، كأن مقدار الولاء للخارج اصبح يقاس بمدى الاساءة الى المقامات التي ينتسبون اليها في الداخل. وغالبا ما يفقدون بسببها احترام الجهات التي يظنون أنهم يخدمونها. فقد كان مستهجنا تصوير الوزير سليمان فرنجيه، ابن

العائلة العريقة في وطنيتها واحترامها لمقامات الطائفة التي تنتمي إليها - تصويره البطريك الماروني مار نصرالله بطرس صفير بأنه "دمية" في يد "مدنيين واكليريكيين تحركهم مخابرات خارجية"! وفي نطاق التقليل من خطورة البيان الذي كشف السياسيين الذين تجاهلوا هموم الشعب وانصرفوا الى خدمة مصالحهم الفئوية والخاصة، مما اضطر بكركي الى رفع الصوت باسم الشعب الجائع والعريان والمقهور - انطلقت موجات من الارهاب الفكري تذكّرنا بالتهويل الذي رافق انعقاد مؤتمر الطائف: "القبول بميثاق الطائف او يستمر القتل والتدمير"، ثم التهويل الآخر بعده: "مخايل ضاهر أو الفوضى"، واليوم جاء تهويل الأمين العام لـ "حزب الله" السيد حسن نصرالله: "اما السوري أو الفوضى"، في استغناء لا مثيل له للشعب اللبناني الذي دعم المقاومة وتحمل التضحيات على أنواعها. ولم ينحُ الجيش اللبناني من دروس نصرالله، تبريراً لبقاء الجيش السوري في لبنان، بقوله "ان الجيش اللبناني الذي أُعيد بناؤه على قاعدة وطنية، في حاجة الى وقت أطول لتحسين وحدته الوطنية، وحتى لا تبقى داخل هذه المؤسسة تركيبات طائفية وحسابات ومصالح. وما دامت الضمانة السورية متوافرة، فان ذلك يعني ان هناك سلماً أهلياً وحواراً وتفاعلاً وبناء وطن، وهذه الحقيقة". وهذا لعمرى اقوى تأييد لما اورده بيان بكركي من ضرورة انسحاب الجيش السوري لأن جيش لبنان، رمز السيادة والاستقلال والكرامة الوطنية، يجب ان يكون الضمان للسلم الاهلي وبناء الوطن. وكان قائد الجيش العماد ميشال سليمان قال أول من أمس: "ان الجيش الذي بني على نبت الطائفية والفئوية والتطلع فقط الى المصلحة الوطنية العليا، لن يسمح بمشاريع طائفية تهدف الى التعرض لانجاز التحرير وتشويه صورة الوحدة الوطنية، وسيفرض الأمن عند أي محاولة للعبث به من أي جهة".

بالطبع لم يهتم الرأي العام لمحاولات التهويل هذه والتي كانت جزءاً من الحرب التي شنت على لبنان طوال ١٧ سنة، الا ان استمرارها من شأنه أن يسيئ الى المصلحة اللبنانية العليا التي رفعها رئيس الجمهورية في وجه "كل ما يقال ويطرح" - طبعاً خارج الازمة الاقتصادية الخانقة التي تهدد لبنان بالانهيار والمسؤولون ينفرجون عليها منتظرين حلول موعد الاستشارات النيابية لتأليف "حكومة المن والسلوى" - مؤكداً، على ما نسبه اليه نقيب المحررين "ان موقف الدولة هو الموقف الحق الذي يجسّد المصلحة الوطنية العليا"، فأين هو هذا التجسيد عندما يهولون بأن انسحاب الجيش السوري سيؤدي الى فتنة وفوضى، وان هذا الجيش، لا الجيش اللبناني الذي يعتز الرئيس بأنه اعاد بناءه، هو "الضمانة الأمنية في لبنان". وربما من اجل هذا لم توافق الدولة على ارسال الجيش اللبناني الى الجنوب، حتى لا يفرط مجدداً في مواجهة العدو!

ورغم المرارة التي يشعر بها اللبنانيون، وهم يشهدون المدى الذي بلغتة التبعية للخارج والتي لم توفر مقاماً ولا مؤسسة، لا يزالون متمسكين بوحدتهم، من بكركي الى دار الفتوى، وبايمانهم بأن الشعب اقوى من المؤامرات والتوجيهات والازرار والقابضين عليها.

وما هي الا ايام وتمرّ... ويقترب الاستحقاق الحكومي فتفتتح العيون التي أُغمضت على خطورة القضايا التي طرحها بيان بكركي. وبكركي ما كانت "عذبت" نفسها بالبيان وتحملت اوزاره لو كان في لبنان سياسيون يملكون الشجاعة الكافية للجهر بما دفع ضمير المطارنة والبطريك إلى اعلانه غير عابئين بالثمن، ولان اجرهم عند الله.

ادمون صعب